الفصل الثالث والاربعون بعد المئة

الخطابة

والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الفكري عند الجاهليين. وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قومه والذبّ عنهم والتكلم باسمهم ، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء ، اشتهروا بقوة بيانهم وبسحر كلامهم ، وأوردوا نماذج من خطبهم . ومنهم من اشتهر بنظم الشعر ، وعدّ من الفحول ، مثل عمرو بن كلثوم[1] .

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[2] . وذكروا ان الشعراء كانوا في أرفع منزلة عند العرب،وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر الى قوم اتخذوه أداة للتكسب وسعوا به في كل مكان ، فوضعوه أمام الملوك والسوقة ، سلعة في مقابل ثمن ، واستجداءً لأكف الناس ، فأنف منه الأشراف وتجنبه السادة ، ونبهت الخطابة . وصار للخطيب شأن كبير ، ارتفع على شأن الشاعر . ولخص (الجاحظ) ذلك بقوله : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .
٢ البيان والتبيين (١١٤) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[1] .

وكانوا يحبّون في الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت. وأن يكون مؤثراً شديد التأثير في نفوس سامعيه حتى يسحرهم ويأخذ بألبابهم . وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس أو تفاوضوا في أمر ، أو أرادوا تأجيج نيران الحروب ، أو عقد صلح ، أو البت في أي أمر جلل . ولذلك صارت الخطابة من امارات المنزلة والمكانة ، فصارت في ساداتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام .

وقد ذكر (الجاحظ) ، أن حمل العصا المخصرة دليل على التأهب للخطبة . والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم ، ومنسوب اليهم . حتى انهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم ، إلفاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها : والإشارة بها »[2] . ولا يخطب أحدهم إلا وعنده عصاً أو مخصرة ، جرى على ذلك عرفهم حتى في الاسلام . « قال عبد الملك ابن مروان : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي » ، وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة[3] . وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسيّ ، ويشيرون بالعصا والقنا ، ومنهم من يأخذ المخصرة في خطب السلم ، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وذكر أن من عوائدهم أن يكون الخطيب على زيّ مخصوص في العمامة واللباس[4] . وأن يخطب الخطيب وعلى رأسه عمامة ، علامة المكانة والمنزلة عند الجاهليين . وذكر أيضاً أن من عوائدهم ألا يخطب الخطيب وهو قائد إلا في خطبة النكاح . كما ذكر أن منهم من كان

---

١ البيان والتبيين (١/٢٤١) .

٢ البيان والتبيين (٦١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ،المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (٣/١١٧) ، (هارون) .

٣ البيان والتبيين (٣/١١٩ وما بعدها) .

٤ بلوغ الارب (٣/١٥٢ وما بعدها) ، البيان (١/٣٧٠ وما بعدها) .

يخطب وهو على راحلته[1] . وذكر (الجاحظ) أن الشعوبية طعنت على « أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب ، والاتكاء والاعتماد على القوس ، والخدّ من الأرض ، والإشارة بالقضيب » . وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قليل التلفت ، نظيف البزة ، وأن يخطب قائماً على نشز من الأرض ، أو على راحلته ، وأن يحتجز عمامته ، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[2] .

وقد كان بين الخطباء من كان يقول الشعر بالإضافة الى علو شأنه بالنثر. غير ان العادة ، ان الشعراء لم يبلغوا في الخطابة مبلغ الخطباء ، وأن الخطباء دون الشعراء في الشعر . « ومن يجمع الشعر والخطابة قليل »[3] . ومن الشعراء الخطباء: (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (زهير بن جناب) ، و (لبيد)[4] ، و (عامر ابن الظرب العدواني)[5] .

وذكر (الجاحظ) ان العرب استعملت الموزون ، والمقفى ، والمنثور في مساجلة الخصوم ، والرجز ، في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط وبعث همة ، وعند مجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادلة والمحاورة ، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى[6] ، وقال أيضاً: « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ،وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ،

---

١ البيان (١/١١٨) ، (٢/٢٠) .

٢ البيان والتبيين (٢٢) ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر ، المطبعة الكاثوليكية) ، البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١/٤٥) .

٤ . ومن شعر لبيد ، قوله :

وأخلف قسا ليتني ولو أنني ... وأعيا على لقمان حكم التدبر

البيان والتبيين (١/١٨٩ ، ٣٦٥) .

٥ البيان والتبيين (١/٣٦٥) .

٦ البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها ، ٢٨) .

وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب»[1].

ويظهر ان من الخطباء من استعمل السجع في خطبه ، ولا سيما في المفاخرات والمنافرات وأمور التحكيم[2] ، وهو في الغالب . ومنهم من كان يستعمل الكلام المرسل وذلك في الأمور الأخرى . ولغلبة السجع على الخطب ، قال بعض علماء اللغة : « الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ونحوه »[3].

وقسم (الجاحظ) الخطب على ضربين ، فقال: « اعلم ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين ، منها الطوال ، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذات الفقر الحسان والنتف الجياد . وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم الى حفظها أسرع »[4] .

وقد اقتضى النظام الاجتماعي والسياسي في الجاهلية أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات التي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات ، في حالتي الهجوم والدفاع. وأقاموا لها وزناً خاصاً بالمناسبة للمفاوضات التي جرت بين القبائل ، أو بين القبائل والملوك . ثم في المفاخرات وفي المنافرات . فكل هذه الأمور وأشباهها استدعت ظهور أناس بلغاء اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم الكلم وفي تنسيق الجمل وفي التلاعب بالألفاظ للتأثير على القلوب والأخذ بمجامع الألباب . فربّ كلمة كانت تقيم قبيلة وتقعدها لتلاعب الخطيب بقلبها بسحر بيانه وفي كيفية اختيار ألفاظه واستخدامه مواضع الإثارة التي يعرف أنها ستثير النار الدفينة في أفئدة سامعيه.

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨ وما بعدها) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٣ تاج العروس (١/٢٣٨) ، (خطب) .
٤ البيان والتبيين (٢/٧) .

ولهذا كانوا لا يختارون لمن يتكلم باسم قومه إلاّ من عرف بسحر لسانه وقوة بيانه، ليتمكن بما وهب من مرونة وتفنن في كلامه من التغلب على خصمه وافحامه، ولما مات (أبو دليجة) (فضالة بن كلدة) رثاه (أوس بن حجر) بكلمة مؤثرة تعبر عن مبلغ شعوره وشعور قومه للفاجعة الأليمة التي جعلت قوم الخطيب في لبس وبلبال ، لعدم وجود من سيحل محله في الدفاع عنهم ، اذ حفلوا لدى الملوك ، فيقول :

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذْ أمسوا من الخطب في لبس وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وافضال[1]

وندخل في الخطباء جماعة عرفت بإلقاء المواعظ والنصائح في أمور الدين والأخلاق والسلوك وفي التفكير ، وهم قوم تأثروا بالمؤثرات الثقافية التي كانت في أيامهم بسبب وجود اليهود والنصارى بينهم، وبسبب اتصالهم بالرهبان والمبشرين في داخل جزيرة العرب وفي خارجها ، فأخذوا يحثون قومهم على التعقل والتأمل والتفكر في أمور دينهم ودنياهم ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والتقرب الى الأوثان ، وهي حجارة صلبة ، أو من خشب أو معدن لا يسمع ولا يجيب. وينسب اليهم ، انهم كانوا على دين ابراهيم، على ألسنة العربية الأولى دين الفطرة دين التوحيد . وينسب اليهم أيضاً ، انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، لا بالعربية وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وانهم كانوا يتدارسون التوراة والانجيل وكتب الأنبياء ، الى غير ذلك من دعاوى قد تكون وضعت عليهم . وهم قوم سبق أن تحدثت عنهم ، وقلت عنهم انهم الأحناف .

واذا درسنا الأغراض التي توخاها أهل الجاهلية من الخطابة ، نجدها تكاد تتجمع في الأمور الآتية : التحريض على القتال، وإصلاح ذات البين ، ولمّ شعث ، لكثرة ما كان يقع بينهم من تنافر وتشاحن ، ثم السفارات الى القبائل أو الملوك، لأغراض مختلفة ، مثل التهنئة والتعزية ، أو طلب حاجة ، وحلّ معضل ، أو انهاء خصومة ، ثم الجلوس لحل الديات وانهاء نيران الثأر ، ثم التفاخر والتنافر والتباهي بالأحساب والأنساب والمآثر والجاه والمال ، ثم في الوفادات حيث تقتضي

---

١ كارلو نالينو (٩٨) ، ديوان أوس (١٠٣) ، نقد الشعر لقدامة (٣٥) .

المناسبة إلقاء الخطب ، أو في الحث على التعقل والتفكر وتغيير رأي فاسد ، كما في خطب قس بن ساعدة الإيادي وفي خطب الأحناف ، ثم في المناسبات الأخرى مثل تعداد مناقب ميت ، أو خطب الإملاك وما الى ذلك .

ومن أشهر الخطب المنسوبة الى الجاهليين ، الخطب التي زعم ان (أكثم بن صيفي) ، و (حاجب بن زرارة) ، وهما من (تميم) ، و (الحارث بن ظالم)، و (قيس بن مسعود) ، وهما من (بكـــر) ، و (خالد بن جعفر) ، و (علقمة بن علاثة) ، و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر) ، قالوها في مجلس كسرى ، يوم أرسلهم (النعمان بن المنذر) اليه ، ليريه درجة فصاحة العرب ومبلغ بيانهم وعقلهم ، مما أثار إعجاب (كسرى) بهم ، حتى عجز عن تفضيل أحدهم على الآخر ، مما جعله يقر ويعترف بذكاء العرب وبقوة بيانهم وبقوة عقلهم ، فقدرهـــم لذلك حق قدرهم وأكرمهم . وهـــي خطب مصنوعة موضوعة ، قد تكون من وضع جماعة أرادت بها الرد على الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من قدر العرب ، ومن لسان العرب ، ومن دعوى الإعجاز في لغتهم، فصنعت هذا المجلس ، وعملت تلك المحاورة والخطب في الرد عليهم،وهي تتناول صميم ذلك الجدل .

وأكثر ما نسب الى زيد وأمثاله من الأحناف مختلق ، وضع عليهم فيما بعد . وأكثر ما ورد عنهم في شرح حياتهم هو من هذا النوع الذي يحتاج الى إثبات .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من الجاهليين قالوا عنهم إنهم كانوا مـــن خطباء الجاهلية المشهورين المعروفين ، وقد أدخلوا بعضهم في المُعَمرين . والمُعَمَّر في عرفهم من بلغ عشرين ومئة سنة فصاعداً ، وإلاّ ، لم يعدوه من المعمرين[1] . وعلى رأس من ذكروا : (دويد بن زيد بن نهـــد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميري)، فهو إذن من حمير . وقد ذكر أنه عاش أربع مئة سنة وستاً وخمسين سنة ، ونسبوا اليه وصية أوصى بها بنيه[2] . ولكنهم لم يذكروا متى عاش ، وفي أي زمان مات ، وكيف أوصى بنيه بهذه اللهجة الحجازية ، لهجة القرآن الكريم، وهو من حمير ، وحمير لها لسانها وكتابتها .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٥٧ وما بعدها) .

وذكر أهل الأخبار اسم (زهير بن جناب بن هبل) في ضمن المشهورين في قوة البيان والفصاحة والمنطق عند الجاهليين ، ويذكرون أنه كان على عهد (كليب ابن وائل) ، وانه كان لسداد رأيه كاهناً ، ولم تجتمع قضاعة إلا عليه وعلى (رزاح بن ربيعة) ، وقالوا إنه : « كان سيد قومه وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم »[1] . وقد ذكروا له وصية أوصى بها بنيه، وأبيات شعر ، زعموا أنه نظمها .

وذكروا أيضاً (مرثد الخير بن ينكف بن نوف بن معديكرب بن مضحى)، زعموا أنه كان قيلاً حدباً على عشيرته ،محباً لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء وأخطب الخطباء ، وزعموا أيضاً أنه أصلح بين القيلين : (سبيع بن الحرث) و (ميثم بن مثوب بن ذي رعين) ، وأوردوا ما دار بينهم من نقاش وحوار[2] ضبطوه وسجلوه ، حتى لكأن كاتب ضبط كان حاضراً بينهم كُلِّفَ تسجيلَ محضر ذلك الحديث .

وعدّ (الحارث بن كعب المذحجي) من هذه الطبقة البليغة التي اشتهرت بسحر البيان . وقد زعم أهل الأخبار أنه كان على دين (شعيب) النبيّ ، وهو دين لم يكن قد دخل فيه غيره وغير (أسد بن خزيمة) و (تميم بن مرّ) . وقد ذكروا له وصيّة لأبنائه ، أوصاهم بها حين شعر بدنو أجله ، بعد أن عاش على زعمهم ستين ومئة سنة[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن هذا الدين ، دين شعيب . وليس في الوصية المنسوبة اليه ما يميزه عن غيره من الخطباء ، مثل قس بن ساعدة الايادي أو غيره من المتألهين الرافضين لعبادة الأوثان .

وعدّ علماء الأخبار كعب بن لؤي في جملة الخطباء القدماء ، وذكروا انه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر . وكان رجلاً طيباً خيراً ،

---

١ الاغاني (٢١/٩٣ وما بعدها) . بلوغ الارب (٣/١٥٩) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٦١ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٣/١٦٤) .

فلما مات ، أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل[1] .

وكان ابن عمار عمرو بن عمار الطائي خطيب مذحج كلها ، وكان شاعراً كذلك ، فبلغ النعمان حسن حديثه ، فاستدعاه ، وحمله على منادمته . وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، وكان شديد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته ، ولكنه لم ينته ، فلما قتله النعمان ، رثاه أبو قردودة ، وهجا النعمان[2] .

وعدّوا (عبد المطلب) في جملة خطباء قريش ، الذين كانوا يخطبون في الملمات وفي الأمور العظيمة ، وكان وافد أهل مكه على ملوك اليمن ، فإذا مات ملك منهم ، أو تولى ملك منهم العرش ، ذهب الى اليمن معزياً ومهنئاً . فهو خطيب القوم اذن[3] .

ومن خطباء (غطفان) في الجاهلية : (خويلد بن عمرو) ، و (العُشَراء بن جابر) من (بني فزارة) ، وخويلد خطيب يوم الفجار[4] .

وأما بقية من ذكر أهل الأخبار من خطباء الجاهلية ، فهم : (أبو الطَّمَحان القيني) ، واسمه حنظلة بن الشرقي من (بني كنانة بن القين)[5] ، و (ذو الاصبع العدواني) وهو من حكام العرب كذلك[6] ، و (أوس بن حارثة)[7] ، و (أكثم ابن صيفي التميمي) ، وهو من حكام العرب أيضاً . وقد ذكر ان (يزيد بن المهلب) كان يسلك طريقته في خطبه ووصاياه[8] ، و (عمرو بن كلثوم) ، وهو من الخطباء الشعراء البارزين في الفنين . وقد ذكروا له خطبة نصح ووصية ذكروا انه أوصى بها بنيه ، في الأدب والسلوك[9] ، و (نعيم بن ثعلبة الكناني) ،

---

١ البيان (١/٣٥١) ، (هارون) .
٢ البيان (١/٢٢٢ وما بعدها ، ٣٤٩) ، البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، (هارون) .
٣ الاشتقاق (٤٣) .
٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٨ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٩ وما بعدها) .
٧ بلوغ الارب (٣/١٧٠ وما بعدها) .
٨ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .
٩ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .

وكان ناسئاً ، ينسىء الشهور ، وقيل : انه أول من نسأها . وكان يخطب في الموسم[1] ، و (أبو سيّارة العدواني) ، واسمه (عميلة بن خالد الأعزل)[2] ، و (الحارث بن ذبيان بن لجأ بن منهب اليماني)[3] .

وفي الملمات والأوقات العصيبة وفي الوفدات على الملوك يُختار خيرة الخطباء المتكلمين المعروفين بأصالة الرأي وبسرعة البديهة والجواب ، ليبيضوا الأوجه ، ويؤدوا المهمة على أحسن وجه . ولما قدم النعمان بن المنذر الحيرة ، بعد زيارته لكسرى، وتفاخره عنده بقومه العرب، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث الى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحارث بن عباد (الحارث بن ظالم) ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المريّ ، وهم خيرة من عرفهم في أيامه بالأصالة في الرأي وبقوة البيان ، وطلب منهم الذهاب الى كسرى والتكلم معه ، ليعرف عقل العرب وصفاء ذهنها . فذهبوا وتكلموا ، فأعجب بهم ، وقدرهم حق تقدير[4] .

وذكر عن حاجب بن زرارة : أنه وفد على كسرى لما منع تميماً من ريف العراق ، فاستأذن عليه ، وتحدث معه ، فأرضاه ، وأذن عندئذ لتميم أن يدخلوا الريف . وقد وفد ابنه عُطارد على كسرى أيضاً بعد وفاة والده[5] .

وأدرك (الربيع بن ضبيع الفزاري) الاسلام كذلك ، ويذكر أهل الأخبار أنه أدرك أيام عبد الملك بن مروان[6] . وإذا كان هذا صحيحاً ، فيجب أن يكون قد عاش معظم أيامه في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان طفلاً ، أو شاباً، وإن ذكر أهل الأخبار أنه كان من المعمرين .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٥ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٧٦) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٧٧ وما بعدها) .
٤ العقد الفريد (٢/٤ وما بعدها) « وفود العرب على كسرى » .
٥ العقد الفريد (٢/٢٠) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٦) ، أمالي المرتضى (١/١٨٣) ، الاقتضاب (٣٦٩) ، الدرر اللوامع (١/٢١٠) .

ومن الخطباء عطارد بن حاجب بن زرارة ، وقد خطب أمام الرسول[1] . ومن خطباء غطفان في الجاهلية : خويلد بن عمرو ، والعشراء بن جابر بن عقيل[2]. وكان الأسود بن كعب ، المعروف بالكذاب العنسي ، الذي ادعى النبوة من الخطباء كذلك[3] .

وذكر أهل الأخبار اسم : (قيس بن عامر بن الظرب) ، و (غيلان بن سلمة الثقفي) في جملة حكام العرب . وذكروا انه كان قد خصص يوماً له يحكم فيه بين الناس ، ويوماً ينشد فيه شعره . وذكروا من حكام قريش عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وأبا طالب والعاص بن وائل[4] .

وعدّوا (قيس بن زهير العبسي) من خطباء الجاهلية المعروفين ، وقد ذكروا عنه انه جاور (النمرّ بن قاسط) بعد (يوم الهباءة) ، وتزوج منهم . ثم رحل عنهم الى (غمار) ، فتنصر بها ، وعف عن المآكل ، حتى أكل الحنظل الى ان مات[5] . وله أمثلة مذكورة في كتب الأمثال[6] . وقيل فيه : « أدهى من قيس بن زهير » ، ومن أقواله : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونذل شبع، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت » ، وله أمثال عديدة[7] . وذكر انه طرد إبلاً لبني زياد ، وباعها من عبدالله بن جدعان ، وقال في ذلك شعراً[8] .

وأما (سحبان بن زفر بن إياس) المعروف بـ (سحبان بن وائل الباهلي) ، فإنه خطيب ضرب به المثل في الفصاحة فيقال : (أخطب من سحبان وائل) ، و (أفصح من سحبان وائل) ، و (أنطق من سحبان) ، و (أبلغ من سحبان) ، لمن يريدون مدحه واعطاءه صفة البيان . وذكر أنه عاش في الجاهلية

---

١ البيان (١/٣٢٨) .
٢ البيان (١/٣٥٠ وما بعدها) .
٣ البيان (١/٣٥٩) .
٤ مجمع الامثال (١/٤١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٥ وما بعدها) .
٦ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (١/٢٦٨ ، ٢٩٩) .
٧ جمهرة الامثال (١/٤٥٧) .
٨ جمهرة الامثال (١/٣٤٤) .

وعاش في الاسلام حتى أدرك أيام معاوية[1] . وقد عرف بخطبته (الشوهـــاء) ، قيل لها ذلك لحسنها . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب[2] . « وكان اذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلعثم ، ولم يتوقف ، ولم يتفكر بل كان يسيل سيلاً »[3] . وقد ورد انه توفي سنة (٥٤ هـ)[4] .

ذكر انه دخل على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا ، لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحي اليمانون انني اذا قلت أما بعد اني خطيبها

فقال له معاوية : أخطب ، فطلب عصا ، فلما أحضرت له خطب جملـة ساعات ، فقال له معاوية : أنتَ أخطب العرب ، قال : أو العرب وحدها ، بل أخطبُ الجن والانس[5] .

وقد اشتهرت إياد وتميم بالخطابة وبشدة عارضة خطبائها وبقوة بيانهم[6] . وقد ذكر ان معاوية ذكر تميماً ، فقال : « لقد أوتيت تميم الحكمة ، مع رقة حواشي الكلم »[7] . وهناك قبائل أخرى أخرجت خطبـاء مشهورين ، نسبت اليهم خطب بليغة . وقد يكون من الأعمال المفيدة النافعة ، وضع دراسة خاصة بعدد الخطباء الذين نبغوا في القبائل ، وبدراسة خطبهم ، وبمساكن أولئك الخطبـــاء ومهاجر قبائلهم ، فإن دراسة علمية مثل هذه تعيننا كثيراً على الوقوف على تطور هـــذه اللغة العربية التي نزل بها القـرآن الكريم ، والقبائل التي تكلمت بها سليقةً وطبعاً .

وذكر (الجاحظ) أن شأن (عبد القيس) عجب ، « وذلك أنهم بعـــد

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٦) ، تاج العروس (١/٢٩٤) ، (سحب) ، ثمار القلـوب (١٠٢ وما بعدها) .
٢ البيان (١/٣٤٨) ، (لجنة) ، وعرفت خطبة قيس بن خارجة بالعذراء .
٣ الاصابة (٢/١٠٨) ، (رقم ٣٦٦٣) .
٤ كارلو نالينو (١١٨) .
٥ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (١/٢٤٨ وما بعدها) .
٦ البيان والتبيين (١/٥٣) .
٧ البيانُ والتبيين (١/٥٤) .

محاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب، وفرقة وقعت الى البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة . وهذا عجب »[1] . وذكر (الجاحظ) أن (معاوية) كان يعجب من فصاحة (عبد القيس) ، ولما اجتمع بـ (صحار ابن العباس) (صحار بن العياش) ، المعروف بـ (صحار العبدي) ، عجب من بلاغته وفصاحته ، فقال له ، ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا ، فنقذفه كما يقذف البحر بزبده . قال : فما البلاغة ؟ قال : أن تقول فلا تبطيء ، وتصيب فلا تخطيء[2] . وورد في (كتاب الحيوان) ، للجاحظ ، أنه قال له : « ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء»[3]. وله كلام فيما يجب أن يقال عند تذكر الاحسان[4] .

وكان نسابة ، وله مع (دغفل) النسابة محاورات[5]. وقد ذكر (ابن النديم)، أن له من الكتب : (كتاب الأمثال)[6] ، وقد أشاد (الجاحظ) بعلمه في الأنساب ، وذكره فيمن ذكر ممن ألف في كتب النسب ، من أمثال (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (أبي اليقظان) ، و (أبي عبيدة) ، و (دغفل بن حنظلة) النسابة ، و (ابن لسان الحمرة) ، و (ابن النطاح) اللخمي[7] .

وكان لبني عبد القيس ، اتصال بمكة قبل الاسلام ، لهم معها تجارة . يرسلون اليها التمر والملاحف والثياب والتجارة المستوردة من الهند . وقد أشير اليها في خبر إسلام (الأشج) : (أشج) عبد القيس ، واسمه (المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النعمان) العبدي . فقد أرسل ابن أخته (عمرو بن عبد القيس).

---

١ البيان والتبيين وأهم الرسائل ، انتقاء الدكتور جميل جبر ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (المطبعة الكاثوليكية) ، (ص ٢٤) .
٢ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) ، البيان والتبيين (١/٩٦) ، المصون (١٣٩).
٣ الحيوان (١/٩٠ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٣/٣٦٧) .
٥ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٦ الفهرست (١٢٨) ، (المقالة الثالثة) .
٧ الحيوان (٣/٢٠٩) .

الى مكة عام الهجرة ، ومعه تجارة من تمر وملاحف ، فلقيه النبي ، وهداه الى الاسلام ، وكان مثل قومه نصرانيـــاً ، فأسلم ، وتعلم سورة الحمد واقرأ باسم ربك ، فلما باع تجارته وعاد ، أخبر خاله (الأشج) بإسلامه ، فأسلم وكتم إسلامه حيناً ، فلما كان عام الفتح ، خرج مع وفد من أهل (هجر) وعبـد القيس ، وصل المدينـــة ، وقابل الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، فقدموا بلادهم ، وحوّلوا (البيعة) مسجداً[1] .

وممن اشتهـر من (بني عبد القيس) بالخطابـــة والفصاحة : (صعصعة بن صوحان) العبدي ، وأخواه : (سيحان) و (زيد) . وقد شهد (صفّين) مع (علي) ، وكانت له مواقف مع معاوية ، وقد مات في خلافته . « وقال الشعبي كنت أتعلم منه الخطب » ، وله شعر[2] .

وذكر في أثناء تحدث أهل الأخبار عن (الردة) وادعاء (لقيط بن مالك) الأزدي النبوة ، ان (الحارث بن راشد) ، و (صيحان بن صوحان) العبدي جاءا على رأس مدد من (بني ناجية) و (عبد القيس) ، لمساعدة (عكرمة) و (عرفجة) ، و (جبير) ، و (عبيد) ، فاستعلاهم ، فلما وصل المدد انهزم (لقيط) ، وقتل ممن كان معه عشرة آلاف[3] . ولعل (صيحان) هذا هو أخ (صعصعة بن صوحان) .

ومن منازل (عبد القيس) (دارين) و (الزارة) ، وكان بهـا رهبان وبيع[4] ، ويظهر ان النصرانية كانت منفشية بين (عبد القيس) ، وردت اليها من العراق . وكان (بنو عبد القيس) من العرب المتحضرين بالنسبة الى أعراب البوادي ، ولهم اتصال بالعالم الخارجي ، وقد قام المبشرون بنشر الكتابة بينهم ، ولا بد وأن تكون كتابتهم بالقلم العربـي الشمالي ، الذي كان يكتب به النصارى العرب . ونجد في قرى البحرين أناساً من مختلف الأجناس ، بسبب اتصالها بالبحر

---

١ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) ، (٣/٥) ، (رقم ٥٩٠٣) .

٢ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) ، البيان (١/٩٦) ، جمهرة الامثـــال (٢/١٤٤) .

٣ الاصابة (٢/١٩٣) ، (٤١٣٣) .

٤ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) .

ومجيء الأقوام اليها من الهند وايران والعراق ، فظهرت فيها ثقافة ، امتصت غذاءها من مختلف الثقافات .

وهناك من اشتهر بالخطابة وكان قريب عهد من الاسلام ، أو أدركه وأسلم، منهم : (قس بن ساعدة الإيادي) . وقد رآه الرسول ، وسمعه يتكلم ، وهو راكب على جمل أورق . ويذكر أن الرسول قال : « يرحم الله قساً ، إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »[1] . وقد عدّه بعض الباحثين من النصارى، ولكن معظم أهل الأخبار يرى أنه كان على الحنيفية ، أي على التوحيد ، لا هو من يهود ، ولا هو من النصارى[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه « كان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم وهو أول من كتب من فلان الى فلان ، وأول من أقر بالبعث من غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »[3] . وأنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا[4] . وكان أحكم حكماء العرب ، وأبلغ وأعقل من سمع به من إياد . وبه ضرب المثل في الخطابة والبلاغة[5] . روي أن الرسول سمع كلام (قس ابن ساعدة) الإيادي ورواه ، ذكر (الجاحظ) أن رسول الله « هو الذي روى كلام (قس بن ساعدة) وموقفه على جمله بعُكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه »[6] . وذكر في موضع آخر من كتابه (البيان والتبيين) أن الرسول قال : « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٥) ، نزهة الجليس (١/٤٢٩) .

٢ المصدر نفسه .

٣ مجمع الامثال (١/١١٧) ، جمهرة الامثال (١/٢٤٩) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، الخزانة (٢/٩٠) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٥ ثمار القلوب (١٢١ وما بعدها ، ١٢٧) .

٦ البيان والتبيين (١/٥٢) .

وهو القائل في هذه : آياتٌ محكمات ، مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر وأثام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج . ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا .

وهو القائل : يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد . أين المعروف الذي لا يشكر ، والظلم الذي لم يذكر ، أقسم قس قسماً بالله ، إن لله ديناً هو أرضى له من دينكم هذا .

وأنشدوا له :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها بصائر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنّي لا محا لة حيث صار القوم صائر[1]

وقد اشتهر قس بخطبته التي خطبها بسوق عكاظ ، وبأبيات من الشعر رويت عن (أبي بكر الصديق) . وبفصاحته وبلاغته ضرب المثل ، فقيل: « أبلغ من قس »[2] . وقد استشهد ببعض شعر (قس) في كتب الشواهد[3] . وذكر انه أول من قال : أما بعد في العرب .

وفي رواية من روايات أهل الأخبار : ان أول من قال : « أما بعد » ، هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة[4] . زعيم قريش ، وأحد خطبائها المشهورين .

---

١ البيان والتبيين (١/٣٠٨) .
٢ مجمع الامثال (١/١١٧) ، البيان والتبيين (١/٣٠٩) .
٣ الخزانة (١/٢٦٣) ، (بولاق) .
٤ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٤١) ، الخزانة (٤/٣٤٧) ، (بولاق) ، (الشاهد السابع والستون بعد الثمانمائة) .

وذكر بعض أهل الأخبار : أنه قيل لقُس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة : قال : معرفة الرجل نفسه ، قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قيل له : فما أفضلُ المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجه[1] .

وقد وردت في الخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة الإيادي هذه الجملة : « إن في السماء لخبراً » . ويلاحظ أن العبرانيين كانوا يراقبون السماء لأخذ الأخبار عما سيقع لهم من أحداث منها . وقد تخصص بذلك نفر منهم ، عرفوا بـ (خبرى شمايم) ، أي المخبرون عما يقع في السماء ؛ و (قيرى شمايم) ، أي قراء السماء[2] . وكان العرب يراقبون السماء كذلك ، استطلاعاً للأخبار ، وفي الجملة المنسوبة الى (قس) تعبير عن ارتقابه وقوع أمر مهم .

و (قس) من المعمرين ، زعم بعض أهل الأخبار أنه عمر سبعمائة سنة ، وزعم بعض آخر أنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، « وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة » . وقال بعضهم انه أدرك نبيّنا ، وسمعه ، وجعله بعضهم في الصحابة ، وأماته بعضهم قبل البعثة . وقال قوم إنه أول من آمن بالبعث من أصل الجاهلية[3] . وفي الذي يرويه أهل الأخبار عن خطبة قس ورواية النبي[1] لها تصادم في الروايات . وقد ذكر ذلك العلماء[4] ، واني أرى أن القصة موضوعة ، وهي من هذا النوع الذي وضع للتبشير بقرب ظهور دين جديد .

وقد أشير الى قس في أبيات نسبت الى الحطيئة والأعشى ولبيد . وقد ضرب الحطيئة به المثل في البيان ، وبقوة تأثيره في نفوس السامعين . أما الأعشى فقد وصفه بالحلم ، وأما لبيد فقد قال فيه :

وأخلفن قساً ليتني ولعلني وأعيا على لقمان حكم التدبر

---

١ العقد الفريد (٢/٢٥٤) .

٢ Hastings, Dict., Vol., I, p. 194.

٣ الخزانة (٢/٨٩ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، البيان والتبيين (١/٥٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (١/٢٦٣) ، (بولاق) .

٤ السيرة الحلبية (١/٢١٠) ، اللآلىء (١/٩٥) .

ويقولون : وانما قال ذلك لبيد ، لقول قس :

هل الغيب معطى الأمن عند نزوله بحال مسيء في الأمور ومحسن
وما قد تولى فهو لا شك فائت فهل ينفعني ليتني ولعاني ؟

ونسبوا اليه أبياتاً من الشعر[1] .

وورد ان (الجارود بن عبدالله) من (بني عبد القيس) ، وكان سيداً في قومه لما قدم على رسول الله ، وأسلم مع قومه ، قال له الرسول : « يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا من بين يدي القوم كنت أقفو أثره . كان من أسباط العرب فصيحاً ، عمّر سبعمائة سنة ، أدرك من الحواريين سمعان ، فهو أول من تأله من العرب ، كأني أنظر اليه يقسم بالرب الذي هو له ليبلغن الكتاب أجله وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادّكار وليالٍ خلا لهنّ نهارُ

في أبيات آخرها :

والذي قد ذكرتُ دلّ على الله نفوساً لها هدى واعتبار

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام ما أظن اني أحفظه . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، فإني أحفظه : كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته : يا أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، الى آخر ما أورده من الوعظ »[2] .

و (الجارود) ، هو (بشر بن عمرو بن حنش بن النعمان) ، وقيل هو

---

١ المرزباني ، معجم (ص ٣٣٨) .
٢ الخزانة (٨٩/٢) ، سيرة ابن سيد الناس (٦٩/١) .

(أبو المُعلى) ، (الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة)[1] ، وقيل: (الجارود بن المعلى) ، ويقال ابن عمرو بن المعلى ، وقيل الجارود بن العلاء ، وقيل الجارود بن عمرو بن حنش ، وقيل اسمه بشر بن حنش ، الى غير ذلك من أقوال تدل على اضطراب أهل الأخبار في معرفته ، وكان نصرانياً ، وكان شاعراً ، وأوردوا له شعراً يعلن إيمانه بالرسول ، وبأنه حنيف حيث كان من الأرض . قيل إنه قتل بفارس في أيام عمر سنة (٢١) ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

وذكر (الجاحظ) أن من خطباء العرب : (الصباح بن شفي) الحميري، زعم أنه كان من أخطب العرب ، وقيس بن شمّاس ، وثابت بن قيس بن شماس ، خطيب النبي ، فقد أوكله الرسول بالردّ على خطاب من كان يخطب أمامه من الوفود ، فهو الناطق باسمه بالنثر ، كما كان (حسان) الناطق باسم الرسول شعراً . وذكر أن من خطباء العرب (الأسود العنسي) ، و (طليحة ابن خويلد) الأسدي، تنبأ في خلافة أبي بكر في بني أسد بن خزيمة ، وعاضده (عيينة بن حصن) الفزاري ، فوجه (أبو بكر) اليه خالد بن الوليد، فهزمه، وأسر (عيينة) سنة (١١) للهجرة ، وقد أسلم (طليحة) ، واستشهد بنهاوند سنة (١١) من الهجرة[3] . وذكر (الجاحظ) : (مسيلمة) بعد (طليحة) ، فقال : « وكان مسيلمة الكذّاب ، بعيداً عن ذلك كله »[4] ، أي انه نفى الخطابة عنه .

ومن الخطباء النابهين أصحاب الرأي والبيان ، خطيب عاش في الجاهلية والاسلام وقد أسلم وحسن إسلامه ، هو : سهيل بن عمرو الأعلم ، أحد بني حِسْل بن معيص . يقال انه كان مؤثراً جداً ، أخاذاً يأخذ بعقول الناس ، حتى ذكر ان عمر قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦١) .
٢ الاصابة (١/٢١٨) ، (رقم ١٠٤٢) .
٣ البيان والتبيين (١/٣٥٩) .
٤ البيان والتبيين (١/٣٥٩) .

لا أمثل ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً . دعه يا عمـــر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، قام خطيباً ، فقال : « أيها الناس ، إن يكن محمـــد قد مات ، فالله حي لم يمت ، وقد علمتم أني أكثركم قتباً في بَرّ ، وجارية في بحـــر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ، إن لم يتم الأمر ، أن أردها عليـــكم » . فسكن الناس[1] .

وهو الذي قال يوم خرج آذن عمر ، وبالباب عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلان ، وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ أين عمار ؟ فتمعرت وجوه القوم ، فقال سهيل : لمَ تتمعر وجوهـــكم ؟ دُعُوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعدّ الله لهـم في الجنة أكثر[2] . وفي هذا الجواب دلالة على عقـــل فاهم للواجب مدرك لمهمات رئيس الدولة، ولما يجب أن تقوم الحكومة عليه ، لا يبالي بالعنعنات القديمة وبالعرف القبيلي الجاهلي .

وروي « أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتد من ارتد من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيباً . فقال : والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعهـــا الى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم – يعني أبا سفيان – ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قـــد جثم عـــلى صدره حسد بـني هاشم . وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة »[3] . وقد كان مخلصاً في عقيدته مطيعاً لأمر الحاكم، ذكر أنه حضر « الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو

---

١ البيان (٣١٧/١) ، (من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) ،الاصابة (٢٩/٢) ، (وقم ٣٥٧٣) ، الاستيعـــاب (١٠٧/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٥٨/١) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٢ البيان (٣١٧/١) « لجنة » .

٣ الاستيعاب (١٠٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، البيان والتبيين (٣١٧/١) .

وأبو سفيان بن حرب ، وأولئك الشيوخ من قريش ، فخرج آذنه . فجعل يأذن لأهل بدر ، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم . وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ! انه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس، لا يلتفت الينا ! فقال سهيل بن عمرو ، وقال الحسن : ويا له من رجل ، ما كان أعقله ، أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه . ثم قال : أيها القوم ! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم والله الى ما سبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام »[1] . فالرجل مؤمن ، صاحب مبدأ ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم ، لا بالرئاسة والنسب والجاه ، كما كان يريد أبو سفيان وقومه .

وقد نعت بـ (خطيب قريش)[2] ، لفصاحته وقوة بيانه ، ولهذا اختارته قريش ليكون لسانها حين فاوضت الرسول على الصلح في الحديبية . وقد تكلم فأطال الكلام وتراجع مع الرسول حتى وافق على تدوين كتاب الصلح[3] . وكان هو لسان قريش يوم وضع الرسول يده على عضادتي باب الكعبة ، فقال : « ما تقولون » ؟ فقال سهيل : « نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت »[4] .

وتعد (ابنة الخس هند الإيادية) ، وهي بنت (الخس بن حابس) ، رجل من إياد ، من النساء المعروفات بالفصاحة . وقد رووا عنها الأمثال . وذكر ان والدها هو (خس بن حابس بن قريط) الإيادي . وقال بعض أهل الأخبار ان ابنة الخس من (العماليق) . والإيادية هي (جمعة بنت حابس) الإيادي ،

---

١ الاستيعاب (٢/١٠٩ وما بعدها) .
٢ الاصابة (٢/٩٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .
٣ الطبري (٢/٦٣٣ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٢/٩٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .

وكلتاهما من الفصاح . وذكر بعض آخر ، ان الصواب ان ابنة الخس المشهورة بالفصاحة واحدة ، وهي من (بني إياد) . واختلف في اسمها ، فقيل هند وقيل جمعة . ومن قال انها بنت حابس ، فقد نسبها الى جدها[1] .

وممن ضرب به المثل في الفصاحه (سحبان بن زفر بن إياس) الوائلي ، وائل باهلة . خطيب مفصح يضرب به المثل في البيان ، أدرك الجاهلية وأسلم ، ومات سنة (٥٤ هـ)[2] . شهرته في الاسلام ، كشهرة (قس) في الجاهلية . واشتهر (هيذان بن شيخ) (هيدان بن سنح) ، بكونه خطيب (عبس) ، وذكر أن النبي قال للنابغة الجعدي : لا يفضض الله فاك ، وقال لهيذان : رب خطيب من عبس[3] .

والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن اسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء . ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء ، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الاسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين . بل نجد أن الخطابة كان لها شأن في الحياة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . ففي المناسبات مثل عقد زواج ، لا بد للخاطب من خطبة يخطبها أمام العروس والحاضرين ، يذكر فيها مناقب موكله ومناقب الأسرة التي رغب العروس في مصاهرتها ولعلها هي التي حملت الناس على نعت هذه المناسبة بـ (الخِطْبة) و (بخطبة العروس) ، حتى قيل : « جاء يَخْطِبُ فلانة لفلان » ، وان فرق العلماء بين (الخُطبة) التي هي الموعظة والكلام، وبين (الخِطبة) التي هي طلب المرأة ، بالحركة ، فذكروا أن الأولى هي بضم الخاء والثانية بكسرها[4] .

---

١ تاج العروس (٤/١٣٧) ، (خس) .
٢ الخزانة (٤/٣٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٧٣) ، الاصابة (٣/٥٨١) ، (رقم ٩٠٢٨) .
٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٥٠) .

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت الى خطباء جاهليين ، يخرج المرء من قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنهـا ، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل ، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصلية كتبها الخطباء بأنفسهم ، أو دوّنهـا كتاب شهود كانوا حضوراً وقت القاء الخطب . ونحن وإن تعودنا على اعتبار هـذه الخطب ، وكأنها خطب أصيلة لا شك عندنا في أصالتها ولا شبهة . لكننا لا نستطيع اقناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا . واذا كنا قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب اليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة الى خطباء الجاهليـة ، هي نصوص دقيقة صحيحة ، أو ان أكثرها صحيح لا شك لأحد في صحته ، وذلك لأسباب: منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قولهم « وكان الخطيبُ من العـرب اذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص »[1] ، ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة (قس بن ساعدة) ، ومنهم أناس حضروا خطابه ، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهليين تبلغ عدة صفحات .

وكيف يصدق انسان بصحة ما ينسب الى الجاهليين من خطب وأقوال ، وهو يعلم ان خطبة (حجة الوداع) ، قد اختلف الـرواة في رواية نصها اختلافـاً كبيراً[2] ، واذا كانوا قـد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعـد من أهم خطب الرسول ، لما جاء فيها من بيان وأحكام ، وكلام الرسول أفضل كلام للمسلم ، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهليين ، على انه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى ! واذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله بالمعنى ، لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنص ، فهل يعقل ضبط الناس لخطب الجاهليين ، ضبطاً تاماً كاملاً بالحرف والمعنى ،مع ان كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول في نظر المسلمين من دون شك .

---

١ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

٢ راجع نصها في تاريخ اليعقوبي (٢/٩٩ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

والأمر بالنسبة للشعر الجاهلي من حيث الصنعة والافتعال أهون أمراً في نظري من موضوع الخطب الجاهلية ، فالشعر كلام موزون مقفى وهو غير طويل ، يمكن حفظه بسهولة ، ويمكن خزنه في الذهن أمداً طويلاً ، أما النثر ، فليس من السهل حفظه حرفياً ؛ واذا حفظ ، فلا يمكن للذاكرة مهما كانت قوية أن تحافظ على صفائه الى أجل طويل ، لا سيما اذا كانت الخطب طويلة ، لا تعاد قراءتها إلا في المناسبات . وللسبب المذكور ولخوف المسلمين من التقول على الرسول بما لم يقله من حروف وألفاظ وجمل ، جوّزوا رواية حديثه بالمعنى ، لصعوبة حفظ النص ، فهل تعد خطب الجاهليين أكثر أهمية من حديث الرسول ، حتى نقول انها نصوص مضبوطة صحيحة ، لا غبار على صحتها ، ولا شك من نصها !

وطابع الخطب ، السجع وقصر الجمل والإكثار من الحكم والأمثال ، والتفصيل والإزدواج . ويرد غالب السجع في كلام الكهان لذلك وسم بهم ، فقيل (سجع الكهان) . والسجع في كلام العرب أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي ، وأن يكون في الكلام فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وذكر أن الرسول قال لأحدهم وكان يتكلم سجعاً : أسجع كسجع الكهان ! وفي رواية إياكم وسجع الكهان ، وفي الحديث أنه نهى عن السجع في الدعاء . وإنما كره السجع في الكلام لمشاكلته كلام الكهنة[1] . قال (الجاحظ) : « وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيّاً من الجنّ ، مثل حازي جُهينة ، ومثل شق وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ؛ كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجدُ بني العشراء، للمجد والسّناء » . « فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم

---

١ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلّة زال التحريم » . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في ذلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهونهم[1] . واتبع الخطباء في الاسلام وبعض الكتاب اسلوب السجع في خطبهم وفي كتبهم ، ولا زال السجع محبوباً عند كثير من الناس ، ولهذا فهم يكتبون به .

وأغلب الخطباء هم سادات قبائل وأشراف من أهل القرى ومن أصحاب المكانة والجاه والكهنة والحكام . ومنازلهم تحتم عليهم الخطابة في المناسبات ، لأنهم ألسنة قومهم ، فللكلام أثر في نفوس العرب ، يثير الحرب ويهدىء الأعصاب ويعقد السلم ، ويفض المشكل ، فصار من ثم للخطيب أثر كبير في الجاهلية . وكانت القبائل تفتخر بكثرة ما عندها من خطباء . وذكر (الجاحظ) أن رجلاً من حمير قام في مجلس لمعاوية اجتمع فيه الخطباء ، فقال : إنا لا نطيق أفواه الكمال ، عليهم المقال ، وعلينا الفعال[2] . ومعناه : إنا لا نستطيع الكلام كما يفعل غيرنا ، ولذلك فأنا لا أريد أن أتسابق معهم ، ثم اننا معشر عمل لا قول. و (الكمال) ، بمعنى الجمال ، جمع جمل، نطق بها بالكاف على لغة أهل اليمن القديمة ، لأن لسان حمير ينطق الجيم كافاً مفخمة .

ويلاحظ أن اكثر الذي ذكره أهل الأخبار من كلام الخطباء ، هو وصايا زعم أهل الأخبار أن أولئك الخطباء أوصوا بها أبناءهم ، وذلك حين تقدمت بهم السن ، وحين شعروا بدنو أجلهم . وهي تمثل خلاصة تجارب الموصي ومجمل ما حصل عليه من اختبارات في هذه الحياة . وهي على الجملة حكم ، وآراء في الدنيا ، ومواعظ ، لا تخطر إلا على بال رجل سئم من الحياة ويئس منها ، أو من زاهد متصوف متدين يؤمن بإلّه وبحساب وكتاب ، وجد ان الحياة مدبرة ، وانها زائلة فانية ، لا تدوم لأحد ، لذلك يريد أن يوصي أبناءه بما وجده فيها وخبره ورآه .

ولم يهمل أهل الأخبار ذكر أهل العيّ والبلادة ، وهم على قلتهم وضآلة

---

١ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٢ البيان والتبيين (١/٣٩٨) .

عددهم مجتمع خاص قائم بذاته ، فأشاروا الى نوادرهم وبعض قصصهم، وجعلوا رأسهم وحامل لوائهم في الجاهلية شخصاً ضربوا به المثل في العيّ ، دعوه (باقلاّ) وجعلوه من قيس بن ثعلبة . وقالوا : إن من حماقته وعيّه أنه اشترى عنزاً من الظِباء بأحد عشر درهماً ، فقيل : بكم اشتريتها ؟ فأطلق كفّيه ومدّ أصابعه وأخرج لسانه ، أي يعده بلسانه وأصابعه ، فنفرت العنز ، فعُير بذلك . وفيه يقول الشاعر :

يلومون في حمقه باقلاً كأن الحماقة لم تخلق[1]

---

١ شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٧٩) .

obeikandl.com